

من ماجلولين الى سوزان

سواء لديّ أقرأت كتابي هذا أم مزقته فهو خلو من كل شيء
يهمك العلم به أو النظر إليه .

كل ما يمكنني أن أطرفك به من الأخبار أن أقول لك إن أشجار
الربيع قد بدأت تبسم عن أزهارها ، وأن النسيم العليل يحمل إليّ
في غرفتي هذه الساعة التي أكتب إليك فيها شذى أول زهرة من
زهرات البنفسج وأول عود من أعواد الزنبق .

ويمكنني أن أخبرك أيضاً وإن كنت لا أعرف لمثل هذه
الأخبار معنى - أن الغرفة التي كانت خالية في الدور الأعلى من
منزلنا قد سكنها اليوم في اسمه « استيفن » غريب الأطوار في
وحشته ونفوره وانقباضه عن الناس حتى يكاد يظن الناظر إليه
أنه بائس أو منكوب ، فهو ينزل في صبيحة كل يوم إلى الحديقة
وييده كتاب واحد لا يغيره ، فإذا جلس للقراءة فيه علق نظره
بأول سطر يمر به ثم لا يتقل عنه بعد ذلك ، فهو في الحديقة مطرق
إلى الأرض من حيث يظن الرائي أنه يقرأ في كتاب ، فإذا رآني
مارة أمامه رفع رأسه إليّ وحياني تحية وجيزة ، ثم انتقل من مكانه
وانساب بين الأشجار ، أو صعد إلى غرفته ، لذلك لم تتصل بيني
وبينه معرفة حتى اليوم ، وربما لا يقع شيء من ذلك فيما بعد ،

لأنني لا أتمس السبيل إلى التعرف به ولا أحسب أنه يلتمسه ،
فإن كنت لا بد سائلة عما يتساءل عنه النساء في مثل هذا الموقف
فأقول لك إن الفتى ليس يجميل ولا جذاب ، بل إن في منظره
من الخشونة والجمود ما ينفر نظر الناظر إليه ، وأحسن ما فيه أنني
سمعت ليلة وكانت نافذة غرفتي مفتوحة يغني غناء شجياً مؤثراً
وإن كان لا يجري فيه على قاعدة من قواعد النغم فهو يطرب البؤساء
والمحزونين ولا يعجب الموسيقيين المتفتنين ، ولقد تمكن أبي من
مجالسته منبهة فحدثني عنه أنه من المعلمين الأذكياء ، وبعد :
فأحسب أنني أملكك يا سوزان بحدث يتعلق أكثره بإنسان لا شأن
لي ولا لك معه فلا تعتي عليّ ، فهذا كل ما تستطيع أن تملأ به
صنجات كتابها فتاة تعيش في قربتها الصغيرة عيشاً متشابه الصور
والألوان : لا فرق بين ليله ونهاره ، وصبحه ومساءه ، لا
تطلع الشمس فيه على مرأى جديد ، ولا تغرب عن منظر غريب .

(٢)

من ماجدولين الى سوزان

الجو رائق ، والسماء مصحبة ، وقرص الشمس يلهب التهاياً .
والأرض تهتز فتنبت نباتاً حسناً ، والأرض تنتفض عن أوراقها
اللامعة الخضراء ، والهواء البقار يترقرق فينبعث إلى الأجسام
فيترك فيها أثراً هادئاً لذيلاً ، وكل ذلك لا قيمة له عندي ، ولا
أثر له في نفسي ، فلإني أشعر أن الحياة مظلمة قائمة ، وأن هذا
القضاء على سعته وانفراج ما بين أطرافه ضيق في أعيني من كفة
الحابل ، وأن منظر العالم قد استحال إلى شيء غريب لا أعرفه

ولا عهد لي بمثله ، فأظل أنتقل من مكان إلى مكان ، وأفر من الحديقة إلى المنزل ومن المنزل إلى الحديقة ، كأني أفتش عن شيء ، وما أفتش عن نفسي التي فقدتها ولا أزال أنشدما ، فإذا نال مني التعب أويت إلى أشجار اليزفون في الحديقة لأستريح في ظلها قليلاً ، فلا يكاد يعلق نظري بأول زهرة يروقي منظرها من بين أزهارها حتى أشعر كأني أنتقل من هذا العالم شيئاً فشيئاً إلى عالم جميل من عوالم الخيال ، نأبتغل فيه كما يتغلغل الطائر المحلق في غمار السحب ، وتمر بي على ذلك ساعات طوال لا أعود بعدها إلى نفسي إلا إذا شعرت بسقوط الكتاب من يدي ، فإذا استفتت وجدتي لا أزال في مكاني ، ولا يزال نظري عالقاً بتلك الزهرة الجميلة التي وقفت عليها .

يقولون إن فصل الربيع فصل الحب ، وإن العواطف تضطرم فيه اضطراباً فتانس النفوس بالنفوس ، وتقرب القلوب من القلوب وتمتلئ الحداق والبساتين بجماعات الطير صادحة فوق زواهر الأغصان ، وجماعات الناس سائحة بين صفوف الأشجار ، أما أنا فلا أصدق من كل هذا شيئاً ، فإن أجمل الساعات عندي تلك الساعة التي أدخل فيها بنفسي فأناجيهها بهومي وأحزاني وأذرف من العبرات ما أبرد به تلك الغلة التي تعتلج في صدري .

وأعجب ما أعجب له من أمر نفسي أنني أبكي على غير شيء ، وأحزن لغير سبب ، وأجد بين جنبي من الهموم والأشجان ما لا أعرف سبيله ولا مآتاه ؛ حتى ينخيل إليّ أحياناً أن عارضاً من عوارض الجنون قد خالط عقلي فيشتد خوفي واضطرابي .

إن الذين يعرفون أسباب آلامهم وأحزانهم غير أشقياء لأنهم يعيشون بالأمل ويحيون بالرجاء ، أما أنا فشقية لأنني لا أعرف لي

داء فأعالجه ، ولا يوم شفاء فأرجوه .

كل أسباب العيش حاضرة لديّ ، وأبي لا يعرف له سعادة في الحياة غير سعادتني ، ولا هناك غير هنا ، ولا يعجبه منظر من مناظر الجمال في العالم سوى أن يراني باسمه ، ويرى أزهار حديقته ضاحكة ، بل ربما أغفل أمر حديقته أحياناً حتى تدبل أوراقها وتموت زهراتها في سبيل قضاء مرافقي وحاجاتي ، فأنا إن شكوت فلنما أشكو بطراً وأشراً وكفراناً بأنعم الله التي يسبغها عليّ ويسليها إليّ ، فغفرانك اللهم ورحمتك ، فإني ما اعترفت بجميلك ، ولا أحسنت القيام بشكر أباديك .

إني لأذكر يا سوزان تلك الأيام التي قضيناها معاً ، وتلك السعادة التي كنا نهصر أعصابنا ، ونجني ثمارها . ونطير في سماها بأجنحة من الآمال والأحلام ، فأنديبها وأبكي عليها ، وأحن إليها حين الليل إلى مطلع الفجر والجذب إلى ديمة القطر .

(٣)

من إدوار إلى استيفن

الآن عرفت أنك لا تثق بي ولا تعتمد عليّ وأنتك لا تزال تنظر إليّ بالعين التي تنظر بها إلى أولئك الذين آثرت مغاضبتهم والتبرم بهم من أفراد أسرتك ، فقد كنت عني ما كنت أرجو أن تفضي به إليّ من تبرم ذات نفسك فيما اعترمت عليه من رحلتك لأعرف ماذا تريد وابن تريد ولكني لم أوثر أن أنزل بك في الود إلى المنزلة التي نزلت بي إليها ، فلم أر بدأ من أن أكتب إليك .

إننا نبنتا معاً يا استيفن في تربة واحدة ، تحت سماء واحدة
يغلوها ماء واحد وجو واحد ، وما زلنا كذلك حتى شبينا فاختلقتنا
كما تختلف الشجرتان المتجاورتان في منبهما ثمرة وشكلا ، ولذلك
أنت تفر مني الفرار كله وتقبض عني ، ولا تراني أسلك فجأ
من فجاج الأرض إلا سلكت فجأ غيره ، لأنك أصبحت تسعد
إلا سلكت فجأ غيره ، لأنك أصبحت تسعد بجياة غير التي أسعد
بها ، وتها بعيش غير الذي أهنا به ، ونطرب لنغمة غير التي تسمعها
مني ، ولا تستطيع أن ترى في وجهي تلك المرأة التي تحب أن
ترى فيها صورتك واضحة جلية لا غموض فيها ولا إبهام .

إنك لا تبغضني يا استيفن ، ولكنك لا تحب أن تراني ، لأنك
تعلم أن لي في الحياة رأياً غير رأيك ، وطريقاً غير طريقك ،
فأنت تخاف أن تسمع مني ما يفجئك في تصوراتك وأحلامك ،
ويكدر عليك لذائذك التي تجدها في العيش في ذلك العالم الخيالي
المظلم ، وتقع بها فيه قناعة الشعراء المحزونين بالعيش بين أشباح
خيالاتهم السوداء .

كن كما نشاء وعش كما تريد ، فستقضي أيام شبابك وستقضي
بانقضائها أمانيك وأحلامك ، وهناك تنزل من سمائك التي تطير
فيها ألى أرضي التي أسكنها ، فتعارف بعد التناكر وتواصل
بعد التقاطع وتلتقي كما كنا .

لا بد أن نفرق اليوم لأننا غير متفقين ، ولا بد أن نجتمع بعد
اليوم لأننا ستفق ، فلا بأس أن تكتب إليّ وأكتب إليك ، وأن
نتواصل على البعد لإبقاء على تلك الصلة التي بيننا ، واحتفاظاً بها ،
ورعاية لها حتى يأتي ذلك اليوم الذي تجلو فيه عن نفسها وتبرز
من مكنها .

إن أهلك يعجبون لأمرك كثيراً ، ويرون أنك مكرت بهم ، وأضللتهم عن مقاصدك وأغراضك فسافرت خفية من حيث لا يعلمون بأمرك ولا بيتك التي انتويتها ، ويقولون إنك ما سافرت على هذه الصورة إلا لأنك عدلت عن رأيك في الزواج من تلك الفتاة التي أعدوها لك ، وعندني أهم أصابوا فيما يقولون ، وأنتك مخطيء فيما فعلت ، لأنك تعلم أن والدك فقير لا يملك من المال أكثر مما يشع لأيام حياته ، ولقد كان لك في هذا الزواج من تلك الفتاة التي اختارها لك حظك من سعادة العيش وهنائه لولا أنك شاعر ، والشعراء يفهمون من معنى السعادة غير ما يفهمه الناس جميعاً .

أخوك يجبك كثيراً ، ولا يزال يحدثني عنك كما أحدثه ، فاذكرنا كما نذكرك واكتب إلينا بكل شيء .

(٤)

خواطر استيفن

مضى الليل إلا أقله ، ولم يبق إلا أن تنفجر لمة الظلام عن جبين الفجر ولا أزال ساهراً قلق المضجع ، أطلب الراحة فلا أجدها ، وأهتف بالغمض فلا أعرف السبيل إليه .

إن كان إدوار يسخر مني في كتابه ويهزأ بي ، وينلرني يوم أرى فيه أوهاماً كاذبة وأحلاماً باطلة ، ما كنت أحسبه أماني وآمالاً ، ويرى أن جميع ما أقلره لنفسه من سعادة في الحياة وهناء أشبه شيء بالخيالات الشعرية التي يسعد الشعراء بتصورها ، ولا يسعدون

بوجودها . فلئن كان حقاً ما يقول فما أمر طعم العيش ، وما
أظلم وجه الحياة .

لا .. لا .. إن الذي غرس في قلبي هذه الآمال الحسان لا
يعجز عن أن يتمهدا باطفه وعنايته حتى تخرج ثمارها وتتلاً
أزهارها ، وإن الذي أنبت في جناحي هذه القوادم والحوافي لا
يرضى أن يبعضني ويتركني في مكاني كسيراً لا أنهض ولا أطيّر .
وإن الذي سليني كل ما يأمل الآملون في هذه الحياة من سرور
وغبطة ، ولم يبق لي منها إلا حلاوة الأمل ولذته ، لأجل من أن
يقسو عليّ القسوة كلها فيسلبني تلك الثمالة الباقية التي هي ملاك
عيشي ، وقوام حياتي ...

على أنني ما ذهبت بعيداً ، ولا طلبت مستحيلاً . فكل ما
أطعم فيه من جمال هذا العالم وزخرفه ، رقيق آنس بقربه وجواره ،
وأجد لذة العيش في التحدث معه ، والسكون إليه ، وما الرجال
كما يقولون إلا أنصاف مائلة تطلب أنصافها الأخرى بين مخادع
النساء ، فلا يزال الرجل يشعر في نفسه بذلك النقص الذي كان
يشعر به آدم قبل أن تتغير صورة ضلعه الأيسر حتى يعثر بالمرأة
التي خلقت له فيقر قراره ، ويلقي عصاه .

وبعد : فأني مقدور من المقثورات تضيق به قوة الله وحكمته ،
وأني عقل من العقول الإنسانية يستطيع أن يدع في تصوراته
وتخيالاته الذهنية فوق ما تدع يد القدرة في مصنوعات وآثارها ،
وهل الصور والتخيالات التي تمتلئ بما اذهاننا وتموج بها عقولنا إلا
رسوم ضئيلة لحقائق هذا الكون وبدائعه ، ولو أن سامعاً سمع
وصف منظر الشمس عند طلوعها ، أو مهبط الليل عند نزوله ،
أو جمال غابة من الغابات ، أو شموخ جبل من الأجيال ، ثم

رأى بعد ذلك عياناً ، ما كان يراه تصوراً وخيلاً ، لعلم أن جمال الكائنات فوق جمال التصورات وحقائق الموجودات فوق هوائف الخيالات ، لذلك أعتقد أنني ما تخيلت هذه السعادة التي أقدرها لنفسي إلا لأنها كائن من الكائنات الموجودة وأنها آتية لا ريب فيها .

إن اليوم الذي أشعر فيه بنجية آمالي ، وانقطاع حبل رجائي ، يجب أن يكون آخر يوم من أيام حياتي . فلا خير في حياة يحياها المرء بغير قلب ، ولا خير في قلب يخفق بغير حب .

(٥)

الحب

نزل استيفن صبيحة يوم من الأيام إلى حديقة المنزل فرأى « مولر » والد ماجدولين واقفاً على رأس بعض الجداول متكئاً على فأسه فلم ير بد من أن يحيه فحياه بتحية حيي بأحسن منها ؛ ثم أراد أن يستمر أدراجه فراه ينظر إليه نظرة المستوقف ، ورأى كأن كلاماً يتحير في شذقيه فاستحيا أن يمضي لسيله فوقف ، فقال له مولر : ما أجمل شمس هذا اليوم وما أصفى سماءه ، فأراد استيفن نفسه على كلمة يصل بها الحديث بينه وبينه فلم ير شيئاً أقرب إلى ذهنه من أن يسأله عن ابنته ، ثم بدا له أنه إن فعل أرابه وألقى في نفسه أمراً غير الذي يريد ، وهي المرة الأولى التي خطر له فيها أن في سؤال الرجل عن حال ابنته شيئاً غريباً ، أو أمراً مريباً ؛ ثم استمر مولر في حديثه يقول : إن منظر الطبيعة في هذه الساعة جميل جداً لا يكدره عليّ إلا تلك الرعدة التي أشعر أنها تتمشى في أعضائي ، فما أمر مذاق الشيخوخة ، وما

أثقل مؤونتها ، وسلام على الشباب وعهوده الزاهرة أيام كنت
لا أحفل بنكباء ولا رمضاء ، ولا أبالي أن أبكر في صبيحة كل
يوم تبكير الغراب إلى قمم الجبال وشواطئ الأنهار عاري الرأس
حافي القدم ، أمرح وألعب وأتأثر طرائد الصيد في مسارحها
وملاعبها ؛ فأصبحت ولم يبق لي من تلك الذكريات إلا وفوفي
في هذه الضاحية تحت هذه الشمس المشرقة أنسج من خيوطها
اليضاء كساء أفتي به هذه الرعدة ، وأمتع نظري بروية الفتيات
الصغيرات صواحب ماجلولين وهن يلعبن معها فوق تلك الهضبة
الثلجية . وهنا وجد استيفن مكان القول ذا سعة فقال : إن ماجلولين
لم تنزل اليوم كمعادتها فلعلها بخير ، قال : نعم ، هي بخير ، ولكن
ضيقاً من أقربائنا نزل بنا أمس فلم أر بدأ من أن أكل إليها أمره
والعناية به فتركتها وذهبت لشأني ، وإن كنت أعلم أن ماجلولين
ليس في استطاعتها الصبر عن النزول إلى الحديقة ، ولا يقنعها
من الشمس تلك الخيوط البيضاء التي تنحدر إليها من نافذة غرفتها .
ثم ذهبنا في الحديث بعد ذلك مذاهب مختلفة ، وإنهما لكذلك
إذ فتح باب المنزل ، وإذا ماجلولين وأرشميد مقبلان يحدهما
فتهلل ، وتحدثه فيتسم ، وكأن منظرهما منظر عاشقين يتغازلان ،
لا قريبين يتسامران ، فخيّل لاستيفن أن هذا المشهد الذي يشهده
غير مستحسن ولا مستعذب .

ثم اقتربا منه فصدف عنهما يتلهم بالنظر إلى بعض الزهرات
وود لو وجد السبيل إلى الهرب منهما لولا أنهما اعترضتا طريقه
فسلما عليه فرد رداً فاتراً .

ثم تركهما مكانهما وانحدر إلى خيملة من الخمائل ، فما خطا
فيها بعض خطوات حتى سمع القتي يغرب في الضحك ، فما